الدين والفلسفة

التوفيق بينهما في المشرق

محمد يوسف موسى

بعد أن تبينا في مقال سابق نشره معنى الدين والفلسفة ونشأتهما والعلاقة بينهما في المشرق والمغرب التي كانت الى الخصومة ، ننتقل الى ما كان واجباً على الفلاسفة من محاولات التوفيق بينهما

﴿ تمهيد ﴾ ربما كانت محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة تبدو واجبة وأمراً طبيعياً يحس به الفيلسوف المتدين لأكثر من عامل واحد ، أولاً : ليحقق الانسجام بين ما ورث من عقيدة تعمر قلبه ويراها فوق الشك وإن عز عليه أحياناً ان يفهم بعض جوانبها ، وبين النتيجة التي أدى اليها النظر العقلي الصحيح ، وثانياً : ليكون بمنجاة من غضب بعض رجال الدين الذين يرون كل تفكير عقلي فلسفي ضربة موجهة الى الدين الذي مصدره الوحي لا العقل ، وليكون أيضاً بمأمن من اضطهاد الشعب لمن يرى من المفكرين فضلاً لنفسه في التفكير ، ويزعم انه قادر على فهم ما يراه الكثيرون أسراراً وأموراً فوق طاقة الانسان

واذا كانت محاولة التوفيق مما يهم كل مشتغل بالفلسفة كما قلنا ، فهي أمر لا بد منه لفلاسفة المسلمين ، لكل ما تقدم ، ولبعد شقة الخلاف بين الاسلام وفلسفة أرسطو في كثير من المسائل ، وليستطيعوا الانتاج في هدوء

من أجل ذلك كله نجد أمر العلاقة بين الدين والفلسفة له أصله الاغريقي الذي لا ينكر ، ونجد كل المدارس الفلسفية تقريباً في العصر القديم تحتفظ بمكان صغير أو كبير للمسائل الدينية وترى للدين جدواه الخلقية والاجتماعية ؛ كما نجد هذا الاتجاه لتأسيس علاقة طيبة بين الدين والفلسفة يزيد عند « فيلون — Philon » اليهودي وأمثاله في مدرسة الاسكندرية وعند بعض آباء الكنيسة في المسيحية (١)

(١) نظرية ابن رشد للمستشرق « جوتيه » بالفرنسية ص ١٥٩ — ١٦٠

هذا فيما يتصل بالمفكرين غير المسلمين. أما بالنسبة الى المسلمين، فان الذي يفهم الاسلام وروحه التي تدعو للاخذ بالوسط في كل الامور وتوجب التوفيق بين المتنافرين، والذي درس تاريخ الاسلام وبخاصة الناحية العلمية — نقول إن الذي يفهم روح الاسلام ودرس تاريخ العلوم الاسلامية وتطوراتها، يرى أن روح التوفيق بصفة عامة كانت طابعاً للمسلمين في كل ضروب التفكير النظرية تقريباً، والتاريخ شاهد صدق على ما نقول

ففي علم الكلام نجد مذهب الاشعري — الذي عُرف بمذهب أصل السنة والجماعة — مذهباً وسطاً أريدَ به التوفيق بين مذهب السلف القائم على التمسك بالنص من غير تعرض لتأويله عقليًّا، ومذهب المعتزلة الذي أعطى للعقل الحرية في فهم نصوص القرآن وتأويلها بما يتفق مع العقل؛ كما نجد المعتزلة أنفسهم يرون ان الوحي والعقل من الله فلا يمكن أن يتناقضا، وأن الأنبياء لم يكشفوا شيئاً تعجز العقل معرفتهُ، ولهذا يجب أن يكون ما يجيء به الوحي معقولاً والاّ وجب تأويله. وفي التشريع نجد مذهب مالك يعتمد على الحديث والمذهب الحنفي يعتمد على الرأي ونظر العقل واجتهاده، فجاء مذهب الشافعي وسطاً موفقاً بين هذين الطرفين. وفي الفلسفة نجد محاولة الفارابي التوفيق بين افلاطون وأرسطو التي خصص لها كتاباً من مؤلفاته، كما نجد أن أهم مميزات فلاسفة العرب المشّائين بصفة عامة نزعة التلفيق والتوفيق بين كثير من المذاهب الفلسفية السابقة لهم.

فاذا كانت نزعة التوفيق من النزعات التي سادت مفكري الاسلام في جميع فروع التفكير بصفة عامة، فكم بالاولى يعمل الفلاسفة على التوفيق بين الدين الذي يعتقدون صحته ولا يرتابون في شيء منه والفلسفة المبنية على النظر الصحيح والمنطق السليم!

من أجل هذا نجد كل فلاسفة الاسلام — مثلهم مثل غيرهم من المتكلمين والمفكرين — حاولوا هذا التوفيق سواء منهم من تقدم به الزمن ومن تأخر، مع اختلاف في الطرق التي اصطنعوها والجهود التي خصصوها لبلوغ الغاية المرجّاة، ومع تفاوت في مبلغ ما قُدّر لكل منهم من نجاح. ويطول بنا الكلام اذا تحدثنا في شيء من البسط على كل تلك المحاولات التي بذلت في هذه الناحية الفلاسفة وغير الفلاسفة من المفكرين في الاسلام

لذلك نكتفي بايجاز القول عما كان من أعلام الفلاسفة وحدهم؟ أعني عن الكندي والفارابي ومسكويه وابن سينا في المشرق، وابن باجه وابن طفيل وابن رشد في المغرب

في الشرق

١ — عاش الكندي في فترة من حياته في بيئة التفكير الحر والتسامح الكبير ، هذه البيئة التي خلقها المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) وشجعها حتى انهُ كان نفسه شيعيًّا ووزيره يحيى بن أكثم سنيًّا ووزيره الآخر احمد بن أبي دؤاد معتزليًّا ، وحتى ان الرجل كان لا يجد حرجاً في أن يعتقد ما يرى من مذهب ، فكان يجتمع في البيت الواحد عدة إخوة لكل منهم مذهبه ورأيه [1] لكنهُ عاش بعد هذه الفترة في العصر الذي بدأه المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) والذي عاد فيه سلطان أهل السنة

لا جرم اذاً ، أننا نراه يشعر — كمثل مفكر حر — بالخوف والقلق على نفسه ، فيحاول التوفيق بين الدين الذي لا يشك في انهُ حق والفلسفة التي يقرها عقله . ولهذا نجد ابن النديم يذكر لهُ بين مؤلفاته رسالة في تثبيت الرسل وأخرى في نقض مسائل الملحدين [2] كما نرى ظهير الدين البيهقي يذكر عنه انهُ « قد جمع في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات » [3] كما يذكر في ترجمة أبي القاسم الحسين بن الفضل الراغب انهُ كان من حكماء الاسلام ، وهو الذي جمع بين الشريعة والحكمة في تصانيفه ، وان من كلامه : « بين العقل والشرع تظاهر ويفتقر أحدهما الى الآخر » [4] وبهذا لم يكن الفارابي هو الذي افتتح هذا العمل ، أي التوفيق بين الدين والفلسفة ، كما قرر أحد العلماء الباحثين [5]

٢ — على أن الفارابي عمل لهذه الغاية بجدّ ، غير منبعث ، على ما نعتقد ، باتقاء تعصب الجهّال ورجال الدين ، إذ قضى حياته في جوّ حماه من هذا وحمود . لقد عاش المعلم الثاني عيشة هادئة وادعة حيناً في بغداد موطن تعلمه ودراسته ، ثم انتقل الى حلب وأميرها سيف الدولة الحمداني — المعروف كما قدمنا بحب العلم وتشجيع أهله — ليعيش في كنفه عيشة الزاهد المتصوف الذي لا تغره رياسة ولا تفتنه الدنيا حتى مات بدمشق وقد رحل اليها بصحبة أميره سنة ٣٣٩ هـ . والذي يرجع الى ترجمته ، كما ذكرها ابن خلكان [6]

---

(١) جورجي زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » طبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٩١٢ جـ ٢ ص ١٩ (٢) الفهرست طبع مصر ص ٣٦٢ (٣) تتمة صوان الحكمة طبع الهند سنة ١٩٣٥ ص ٢٥

(٤) نفسه ص ١٠٤ — ١٠٦ ، وقد أتينا بهذا استطراداً نافعاً في هذا المقام

(٥) ابراهيم مدكور في كتابه « مكانة الفارابي » بالفرنسية ص ٤١

(٦) جـ ٢ ص ١١٢ — ١١٤

وابن أبي أصيبعة [١] وصاعد الاندلسي [٢] والقفطي [٣] ، يجد مصداق هذا فالفارابي لم يضطهد بسبب الفلسفة اذاً فقد كانت محاولته التوفيق لما رسخ في ذهنه من ان الحقيقة واحدة ، وانها قد ورد فيها أفلاطون وأرسطو وجاء بها الوحي ، فيجب لذلك التوفيق بين ما يظن تعارضه من هذا كله

والخطة التي اتخذها الفارابي تتلخص في أمرين تأثره فيهما من أتى بعده : تفسيره النبوة بجعلها أمراً عقليًا ، وتأويل بعض العقائد الدينية التي يسميها المتكلمون بالسمعيات تأويلاً عماده العقل والنظر ، وبهذا وذاك يكون قد اعترف بالوحي ولم يلغ العقل ؛ وجعل لكل منهما مكاناً بجانب الآخر . انهُ يرى ان النبوة ليست أمراً خارقاً للعادة ، إذ ليس النبي إلاّ انساناً بلغت قوته المتخيلة غاية الكمال، وتسنى له الاتصال بالعقل الفعال ، فيعرف عنهُ في اليقظة الأمور الحاضرة والمستقبلة وغيرها مما يجعل له صفة النبوة [٤] ، ويكون الفرق بينه وبين الفيلسوف أن النبي يصل الى هذه الحقائق كما وصفنا على حين يصل الفيلسوف اليها بالنظر العقلي ، وليس هذا — في رأي الفارابي — بالفرق الكبير

ولم يخف على الفارابي ما في تفسيره للنبوة وبعض السمعيات (مثل الملائكة والوحي والقلم والحساب) من عسر في الفهم يجعله فوق طاقة بعض الناس ، فقسم الناس الى طبقات ثلاث : العامة ورجال الدين والفلاسفة ، ورأى انهُ يجب عرض الأشياء على كل طائفة حسب مقدرتها على تصورها وفهمها ، إما بذكر حقائقها ، وإما بتقريبها لهم بذكر محاكياتها وأمثالها [٥]

بهذا التفسير العقلي لنظرية النبوة وبعض العقائد السمعية ، وبتقسيم الناس ازاء هذه الامور الى طوائف ثلاث ، رسم الفارابي طريق التوفيق بين الدين والفلسفة للذين أتوا بعده وتأثروا به في هذه الناحية كما يظهر ذلك واضحاً من سنبيع مسكويه وابن سينا

٣ — أما أبو علي احمد بن يعقوب مسكويه فقد عاش في كنف دولة بني بويه ،

---

(١) طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٣٤

(٢) طبقات الامم ص ٦١ — ٦٣

(٣) أخبار الحكماء ص ١٨٢ — ١٨٤

(٤) آراء أهل المدينة الفاضلة، نشر « Dieterici » ليدن ص ٥٢ ، والسياسات المدنية طبع حيدر آباد سنة ١٣٤٦ هـ ص ٤٩ — ٥٠

(٥) كتاب الجمع بين الحكيمين ، طبع ليدن ، ص ٢٦ — ٢٧ والسياسات المدنية ص ٥٥ — ٥٦

وظلّ أثيراً لدى أمرائها حتى توفي سنة ٤٢١ هـ كما ذكر القفطي ، او بعد هذا بعام كما يقول صاحب كشف الظنون وياقوت . وقد عني كالفارابي بمسألة التوفيق بين الدين والفلسفة ، أعني المسألة التي تعتبر معقد الطرافة والابتكار في الفلسفة الاسلامية ، وكانت وسيلته لهذه الغاية تفسير النبوة تفسيراً عقليًا يضعف الفرق بين النبي والفيلسوف ويزيد الصلة بينهما ، وتبيين الحاجة الماسة للنبوة ، وغير هذا وذاك مما وافق فيه رجال الدين والمتكلمين كخلود النفس وحدوث العالم عن عدم [1]

النبي، عنده ، انسان يصل بتأثير العقل الفعال في قوته الحاسة وقوته المتخيلة الى ما يصل اليه الفيلسوف من حقائق ، لا فرق بينهما الاّ ان هذا وصل اليها مرتقياً من أسفل ، أي من قوة الحس الى قوة التخيل الى قوة الفكر التي بها يدرك حقائق الامور التي في العقل الفعال، على حين النبي يتلقى نفس الحقائق منحطة اليه من عل ، ولأن الحقائق التي يصلان اليها واحدة ، كان الفيلسوف أسرع من غيره لتصديق ما يأتي به النبي وقبوله[2]

والناس في رأيه — كما أشرنا من قبل — في حاجة ماسة لمعرفة الآراء الصحيحة والأعمال النافعة التي بها تدرك السعادة ، وان كان معرفة صحة ما دعوا اليه بالنظر الصحيح تكون من جهة الحكماء [3]

٤ — واذا تركنا مذكوريه الى الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا نجد أنهُ قد عُني بالبحث في كثير من رسائله الصغيرة — فضلاً عن النجاة والاشارات — بتخصيص بضع صفحات من كل منها للغاية التي سعى لها الفارابي من قبل وهي الجمع بين الوحي والعقل، ونجده قد تأثر به الى حدٍّ كبير فيما اتخذ لهذه الغاية من خطة وطريق ، أعني من تقريب الفلسفة من الدين ، وتفسير عقائده وشعائره تفسيراً يرضاه العقل والتفكير الصحيح . لهذا نرى الاكتفاء هنا بما ذكرناه عن الفارابي ففيه مقنع وغناء

ولكنا نرى ان نشير هنا الى ان ابن سينا عاش في بيئة كانت — كما ذكرنا من قبل — تشجع العلم والبحث الحر فلم يناله سوء بسبب اشتغاله بالفلسفة ، وما ناله من الاضطراب في حياته بعد وفاة أبيه كان سببه اشتغاله بالسياسة . واذاً فلم يعن بمسألة التوفيق تقية ومحافظة على الحياة الهادئة الرغدة ، بل ليوائم بين عقيدة القلب المقدسة ونظر العقل الصحيح

(١) الفوز الاصغر طبع بيروت سنة ١٣١٩ هـ ص٣٢ - ٤٩ (٢) نفسه ص ١٠٢ — ١٠٤
(٣) نفسه ص ٦٦